الصفحات: من 302 إلى 314

الزوايا و الحركة الإصلاحية في الأوراس 1880 - 1939 م

تاريخ الاستقبال: 2017/03/11 - تاريخ المراجعة: 2017/05/22 تاريخ النشر: 2017/06/25

سفيان لوصيف
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

ملخص باللغة العربية:

يتناول المقال بالدراسة و التحليل الحركة التعليمية و الثقافية التي كانت في منطقة الأوراس خلال النصف الثاني من القرن 19 م و النصف الأول من القرن 20 م، حيث انتشرت المساجد و المعاهد التعليمية، و التي كانت تقاوم المشروع الثقافي الاستعماري الفرنسي، لأن الفرنسيين حاربوا التعليم الإسلامي و اللغة العربية فعملت هذه الأخيرة على النهوض و تطوير المستوى الثقافي لدى الجزائريين، و قد نتج عن ذلك نشاط أفراد جمعية العلماء المسلمين في الأوراس.

Summary:

The article deals with the study and analysis of the educational and cultural movement that existed in the region of the Auras during the second half of the 19th century' where mosques and educational institutions' which resisted the French colonial cultural project' spread because the French fought Islamic education And the Arabic language' which worked to promote the education and development of the cultural level of the Algerians. This resulted in the activity of members of the Association of Muslim Scholars in the Auras.

مقدمة:

بعد احتلال قسنطينة في عام 1837، عمل المستعمر الفرنسي على احتلال منطقة الجنوب الشرقي ومنها الأوراس التي اعتصم بها أحمد باي، فقرروا دخولها بجيش كبير قاده جنرالات و عقداء، كان على رأسهم 'Bedeau' والعقيد ماكمهون 'Mac-Mahon'، حيث تم احتلال المنطقة بعد استسلام أحمد باي سنة 1848، ولم يتوان السكان فيها مناهضة المخططات الاستعمارية لاسيما الثقافية، بصلابة منذ نزول المحتل أرض الأوراس، ويمكن أن نستحضر الصور المعبرة عن البطولات والأمجاد في التصدي للفرنسيين، فقد كان نفورهم واشمئزازهم من الأجنبي يزداد تبعا لتزايد السياسة الاستبدادية الاستعمارية، عبر عنها حمدان خوجة بقوله:«

تلك الأفكار السوداء التي كونها عن الطبع الفرنسي، والتي لم يكن يعرفها من قبل، وهي من سوء الحظ، تزداد تفشيا في أعماق قلوب الأهالي » (الزبيري، 1973، ص.153) ، ويعود الغل المكتسب حمدان خوجة إلى عوامل نحصرها في:

– كون الجزائريين ومنهم سكان الأوراس يعتبرون أن الفرنسيين لا يقاومون إلا بالتعصب الديني.

– الشعور بالاعتداء من قبل أمة أجنبية، استعملت القوة والتحايل.

– خشية المآل إلى الفاقة نتيجة اغتصاب أملاكهم (الزبيري، 1973، ص.153، 154).

وإذا كان الفرنسيون ملكوا الأرض وألحقوها بفرنسا، فإنهم لم يملكوا العقول والقلوب التي ظلت تمتلئ حقدا، وتبحث عن فرصة للانتقام، فانتصارهم العسكري لا يعني إخضاع النفوس، وفشلوا في تحويل شعور الجزائريين إلى فرنسي مسيحي يكون مساويا لهويتهم وثقافتهم، رد فعل على هذه السياسة كان حاسما في شكل صراع 'بدأ يوم بدأ المحتل يفرض لسانه، وتفكيره، وأسلوبه في الحياة، مستعملا المدرسة، والمستشفى، المعلم والطبيب '، لقد كانت مرحلة الاحتلال محل مجابهة بين الطرفين، ينشئ المستعمر مدارس فلا يتردد عليها التلاميذ، يقيم المستشفيات فلا يتردد عليها المرضى، فوجد صعوبات جمة في ذلك (Turin ' 1983' p.35) ، لقد كان الجهل وراء مغامرة خاضها الفرنسيون، حيث أنهم لم يدركو من قبل حسابا ما لهذا الشعب من تراكم حضاري عريق، وراحوا يفسرون فشلهم الذريع بعدم معرفتهم بالجغرافيا والمناخ (تورات، 1972، ص. 253).

نزل جماعة من الآباء البيض في آريس وتمركزوا فيها وشيدوا مقرا يحتوي على مسكن وكنسية للتعليم ثم أنشأوا فرعا بالمنطقة ويعرف إلى الآن باسم ضيعة الماربو، ولم ينجحوا في مهمتهم وباعوا مقرهم بآريس إلى السلطة المدنية وحول إلى مقر الدائرة حاليا وانسحبوا سنة 1918 بعد بيع ضيعتهم في المزاد العلني سنة 1928 (جمعية تاريخ و تراث الأوراس، ص. 271).

هكذا تبدو شدة المقاومة التي أبداها الأوراسيون في الفترة الأولى التي هي حسب الباحثة الفرنسية « Turin « تزعمتها الزوايا والطرق الدينية التي لعبت دورا أساسيا في المعركة، من خلال حشد الجزائريين حولها، وساهمت في تعليمهم وتثقيفهم، وتأليبهم ضد المدارس الفرنسية كي يرفضوا ارتيادها، فلما حاول الفرنسيون إيجاد إجابة عن عوامل عزوف أبناء الأهالي دخول مدارسهم قالوا أن:« المدرسين المكلفين بتعليم الأطفال كانوا متعصبين وجهلة، وعندهم كانت تظهر معارضة لوجهات نظرنا... وتكمن خطورة مقاومتهم لنا في أنهم يشرفون على تربية جيل جديد، ومن هنا يجب أن يخضع كل المدرسين لرقابة شديدة » (Turin ' 1983' p. 218، انتشرت في مناطق الأوراس المترامية الأطراف عدة زوايا تتبع طرق صوفية مختلفة، فأصبحت قطبا للحياة الدينية ومراكز ثقافية تعليمية مهمة، وقيادية تنطلق منها التوجيهات والأوامر للمريدين، نذكر منها على سبيل المثال:

- الطريق الرحمانية:

تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي الجرجري المتوفي عام 1793 م، حيث امتدت

طريقته إلى منطقة الشرق الجزائري وتونس، مرورا بمنطقة الأوراس حيث كثر أتباعها، و تعددت مراكزها، خلال العهد الاستعماري وكان لها دورا إيجابيا، أنشأ الشيخ الطاهر بن الصادق بن الحاج زاوية رحمانية في جبل أحمر خدو بالأوراس، وهي التي تخرج منها محمد بن عبد الرحمن في ثورة الأوراس عام 1879، وفي سنة 1906 وصل عدد الإخوان الرحمانيين في زاوية أحمر بن خدو إلى ألفين تضمهم ثلاث زوايا (الشبهي، 2007، ص. 129، 133).

وظهر فرع آخر بالأوراس، على يد الشيخ الهاشمي بن علي دردور، وهو من عرش أولاد عبدي، تتلمذ في زاوية الخنقة الرحمانية، وأصبح مقدما لها بمدونة ونواحيها، ونتيجة لوقوفه ضد الاحتلال عوقب بالنفي إلى كورسيكا عام 1880.

– الطريقة القادرية:

تعود في أصلها إلى العالم المتصوف عبد القادر الجيلاني المتوفي في بغداد عام 1166 م، وهي قاعدة الطرق الصوفية التي جاءت من بعد، وأخذت في الانتشار على يد شعيب بومدين الذي أسس مدرسة التصوف السني في المغرب والأندلس، وفي القرن 19 م كان شيخ القادرية الحاج محي الدين والد الأمير عبد القادر في منطقة معسكر ونواحي الغرب الجزائري، وقد تفرق القادرية إلى قيادات صغيرة في مختلف مناطق الوطن، منها زاوية تبسة، وزاوية منعة بالأوراس المعروفة بزاوية بالعباس ((الشبهي، 2007، ص.101، 103).

– الزوايا ذات النظام الداخلي : تتكفل بمهمة إيواء وإطعام الطلبة الذين يفيدون من مناطق بعيدة، وهي تعفيهم من نفقات التعليم ومن هذه الزوايا :

- زاوية الشيخ الصادق بن الحاج في تبرمسين بالجنوب الشرقي من جبل أحمر خدو.
- زاوية الشيخ أحمد بن الصادق في غوفي عرش غسيرة.
- زاوية الشيخ المكي بن تازرولت في الدشرة الحمراء قرب آريس عرش أولاد داود.
- زاوية الشيخ علي دردور الكبير في حيدوس وادي عبدي.
- زاوية الشيخ محمد بن بلقاسم في ثنية العابد وادي عبدي.
- زاوية الشيخ بن عباس في منعة وادي عبدي.
- الزوايا ذات النظام الخارجي: تتكفل بالطلبة الأقارب في السكن والأقارب من السكن والمسافة يحضرون إليها في أوقات التعليم والدراسة، وهذه الزوايا هي:
- زاوية الشيخ عبد السلام في تكوت عرش بني بو سليمان.
- زاوية الشيخ عمر بن عبد السلام في القصر قرب تكوت.
- زاوية الشيخ فتح الله في وادي الشرفاء عرش كميل.
- زاوية الشيخ محمد بن عزة قرب آريس عرش أولاد داود.

- زاوية الشيخ بنبوبيش في وادي الأحمر.

وغيرها من الطرق الصوفية، وقد كان لها دورا كبيرا في التعليم، وكذا في مواجهة المبشرين والآباء البيض الذين نزلوا بآريس وضواحيها بعد استيلاء الفرنسيين على الأوراس، وهو المقاطعة التامة حتى اضطروا إلى الرحيل في النهاية، لكن ليست كل الطرق الصوفية والزوايا سارت في منحى واحدا، بل كان البعض منها قد ساير المحتل ووقفت إلى جنبه ضد الأهالي.

ومن أمثلة التعاون الوثيق بين شيوخ بعض الزوايا والفرنسيين، والتأثير الكبير لهؤلاء على عامة السكان في المنطقة هو ما حصل في ثورة الأوراس سنة 1916 التي قام بها سكان عين توتة ضد سلطات الاحتلال، فلم تجد إدارة الاحتلال من وسيلة – لاسيما وأن الفترة هي الحرب العالمية الأولى– سوى رجال الطرق الصوفية السائرين في فلكها والراضخين لإدارة الاحتلال، الذين نجحوا إلى حد كبير في أداء مهامهم فهدءوا نفوس الناس الثائرة يقول الشيخ محمد خير الدين:» خرجوا بأعلامهم وطبولهم يدعون إلى إيقاف القتال ضد فرنسا، فاستجاب الثوار وتوقفت الحرب، وما كان للفرنسيين أن يتمكنوا من إخماد هذه الثورة إلا بمساعدة الطرقيين الذين وقفوا إلى جانب المستعمرين واستجابوا لرغباتهم» (خير الدين، ص.13، 14).

قام المستعمر بتخريب مقرات الزوايا وتدميرها، وإلقاء القبض على رجالها وتعذيبهم في سجن قسنطينة والحراش، وأبعد بعضهم من المنطقة كما نفى بعضهم خارج الجزائر مثل الشيخ الصادق بلحاج إلى جزيرة سانت مارغريت، والشيخ الهاشمي دردور إلى كورسيكا ومحمد مزيان إلى كيان بالمحيط الأطلسي، والشيخ محمد بن سي أحمد أحمر خذو إلى كيان رفقة جماعة بعضهم رجعوا وبعضهم استقر هناك، وهذا خوفا من انتشار التعليم في وسط الشعب حتى يسود الجهل، فقد جاء في أحد التقارير:« إن هؤلاء القوم الذين يطلق عليهم الطلبة المختلطين بكل عمق بحياة الأعراش والقبائل والعائلات كانوا يعلمون للصغار ما تعلموه هم في مدة سنوات عديدة بتونس وفاس، وفي زوايا بلاد القبائل أو الأوراس ويتعلق الأمر بقراءة وكتابة القرآن ... و في الأعراش الرحل كان لكل دوار خيمة كمدرسة ...» (Turin ’ 1983’ p.123)

كان هناك صراعا حادا بين شيوخ جمعية العلماء المسلمين الهادفين صفاء العقيدة ونقائها ورجال الطرق الصوفية الباحثين توسيع نفوذهم وحماية سلطانهم، فغذت إدارة الاحتلال النزاع بمساندتها الفئة الثانية، إذ عملت على غلق المدارس القرآنية والكتاتيب التي أنشأتها الجمعية، وفي نفس الوقت عمدت إلى إنشاء جمعيات دينية مختلفة مثل التي تم إنشاؤها في تبسة باسم الجمعية الدينية الإسلامية ووضعت على رأسها معمر فرنسي يدير شؤونها ويوجه أهدافها ويبث الدعاية في نفوس الناس ومن جملة ما تدعو إليه:« أن العلماء المصلحين ينكرون وجود الأولياء وقد جاؤوا بدين جديد، ومنذ ظهور الدعوة الإصلاحية انقطعت البركة وأمسك الله المطر...»، ومن دون شك أن لهذا الكلام أثر في نفوس الجهلة وعامة الناس (بوصفصاف، 1981، ص.76).

ويجدر التذكير أن المدارس التي أنشأها الفرنسيون عدت عند الأهالي مدارس الكافر وسموها مدارس الشيطان

وبأسماء لعينة، فازداد السكان صمودا وتهافتا على ثقافتهم العربية الإسلامية، وإلى حد كبير هناك توافق بين موقف "Turin « و»Colonna» حول رفضهم للثقافة الفرنسية، تقول «Colonna» أن عدد الجزائريين الذين دخلوا المدارس الفرنسية كان في تقلص بنسب ملحوظة (Fanny'1975' p : 27' 28)، ولاحظت أن المراكز التي يكثر بها عدد الزوايا والمؤسسات التعليمية الحرة، يقل فيها إقبال الأهالي على التعليم الفرنسي، ولم تقتصر المقاومة في التعليم فقط بقدر ما أنها اتخذت أشكالا مختلفة فمنهم من عبر عنها بالسلاح من مقاومة أحمد باي حتى ثورة الأوراس وثورة 1954 الذي لم يضعه حتى استشهاده ومنهم من اتخذ المقاطعة أو ما يعرف بالمقاومة السلبية خاصة في الأرياف حيث قاطع السكان ثقافة فرنسا واعتبروها كفرا بسيئاتها وحسناتها دون تراجع في مواقفهم منها التي أصبحت مسلمة بها عندهم (العلوي، ص.02).

المقاومة والمقاطعة التي أبداها الأهالي، لا يمكن القول من خلالها أن الثقافة الجزائرية بقيت بعيدة عن تأثير ثقافة العدو، لأنها مع مرور الوقت أصابتها صدمة الاحتلال التي ما فتئت تتطور، حتى أصابتها في صميمها، فإن لم تمت فإنها توقفت عن النماء لاسيما بعد خصوبتها وانتعاشها في عهد سابق، فبعد سبعين سنة من الاحتلال حدث الجفاف الثقافي والقطيعة التي حاول الاستعمار فرضها على التراث الإسلامي، ويمكن إضافة التدهور الاقتصادي وسوء الحالة الاجتماعية جعلا منحنى الثقافة يشهد التراجع، وهكذا بدأت المقاومة الصامتة والعلنية التي تبناها الأوراسيون تضعف، فالذين كانوا يرفضون في السابق إرسال أبنائهم إلى المدارس نلاحظ أن هذا الرفض بدأ يتضاءل (الخمري، 2003، ص. 179).

ولهذا الأسباب وغيرها شرع الأعيان في رفع عرائض واحتجاجات، تدعوا إلى التعليم حتى وإن كان فرنسيا مادام أن الهدف هو محاربة الجهل الذي استفحل أمره، ومع ظهور بوادر العمل السياسي والثقافي نشطت الجمعيات والنوادي الثقافية، وأولت ميدان التعليم العناية الفائقة، فقد ظهرت خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى بقليل مدارس عدة في منطقة الأوراس وتخومها، نشير منها على سبيل المثال إلى المدرسة الصديقية التي تأسست سنة 1913 في منطقة تبسة وكانت أول مدرسة عصرية حرة تشرف عليها الجمعية الصديقية الخيرية للتربية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي، ترأسها عباس بن حمانة، وقد تحدث عنها محمد علي دبوز، كانت كما ذكر تقع في أربعة طوابق تبرع بها للجمعية الحاج بكير المرموري، وكانت للمدرسة مكتبة وصيدلية، واتبعت في برنامج التعليم منهاجا حديثا يهتم ويولي العناية بالتربية الإسلامية والقرآن الكريم والتاريخ الإسلامي، لكن السلطات الاستعمارية كانت لها بالمرصاد حيث أغلقتها وحلت الجمعية وسجن بن حمانة ثم اغتيل في 16 جويلية 1914 (سعد الله، 1998، ص. 242).

ويجدر الذكر أن فترة العشرينات من القرن العشرين هي بداية مرحلة جديدة من المقاومة الثقافية، فبعد صمود الزوايا والمساجد، ظهرت مرحلة جديدة قادتها كما أشرنا النخبتين العربية والفرنسية، فالأولى قادها العلماء المسلمين الذين هيكلوا أنفسهم ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست عقب احتفالات ذكرى

مرور قرن من الاحتلال الفرنسي للجزائر، يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: من المعلوم أن الأمة الجزائرية هبت بعد مرور قرن من الاحتلال لتأخذ قسطا من الحياة، من نواحي عديدة، وخصوصا الناحية الدينية والعلمية >>(العلوي، ص.120) ويمكن القول أن الجمعية ركزت على الأهداف التالية:

– إصلاح عقيدة الشعب الجزائري، وتنقيتها من الخرافات والبدع، وتطهيرها من مظاهر التخاذل والتواكل التي تغذيها الطرق الصوفية المنحرفة.

– محاربة الجهل بتثقيف العقول والرجوع بها إلى القرآن والسنة، عن طريق التربية والتعليم.

– المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، بمقاومة سياسة التنصير والفرنسة التي تتبعها سلطات الاحتلال.

– كان للحركة الإصلاحية في منطقة الأوراس دورا هاما في النشاط السياسي منها التوجيه والتأثير في انتخابات كبار الجماعة في كل دوار، وانتخابات جمعيات الفلاحين عن طريق اختيار المترشحين لهذه المجالس والجمعيات الفلاحية، ومن الأعمال الهامة التي قامت بها الجمعيات تأسيس لجان لإصلاح ذات البين، فأدت هذه الطريقة إلى هجر المحاكم الفرنسية وتعطيلها، وذلك بعد أن كانت تمتص أموال المواطنين، والتماطل في البت في القضايا المتنازع في حكم التأجيل.

كان للحركة الإصلاحية صوت قويا عبر الوطن حتى بلغ صداه منطقة الأوراس، فتحمس الشعب لذلك، ويعود ذلك إلى الأعمال التي كانت تقوم بها جمعية العلماء من التعليم في المدارس وإلقاء المحاضرات والدروس في المساجد الحرة. وبسبب هذا التأثير غادر الأوراس طلاب متوجهين إلى الجامع الأخضر والبعض إلى جامع الزيتونة بتونس هدفهم كسب العلم وطريقة التوجيه والإصلاح المثلى، فالجدول التالي يبين بالاسم الكامل لهؤلاء الطلاب المتكونين في هذه المراكز العلمية وكلهم من آريس وضواحيها (الواعي، ص. 268) ، أدركت جمعية العلماء أهمية التربية والتعليم في تحقيق مقاصدها العقيدية والفكرية، فركزت على التعليم الإسلامي العربي، وإنشاء المدارس، وحث الأمة وتشجيعها على إرسال أبنائها إلى مدارسها، بغية تعليم وتثقيف أكبر عدد ممكن من أبناء المسلمين، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته.

وهكذا أدرك سكان الأوراس أهمية التعليم كأساس ثقافي وعامل ارتقاء حضاري، الأمر الذي عجل باستيقاظهم في مناطق الأوراس كلها من غفوة الأمية والجهل، والتحقوا بالمدارس لاسيما أن جمعية العلماء أدركت أهمية التربية والتعليم في تحقيق مقاصدها العقيدية والفكرية، فركزت على التعليم الإسلامي العربي وإنشاء المدارس، وحث الأمة وتشجيعها على إرسال أبنائها إلى مدارسها، بغية تعليم وتثقيف أكبر عدد ممكن من أبناء المسلمين، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، ونلخص إلى ذلك من خلال الجدول الذي يبين عدد المتمدرسين من منطقة الأوراس في شهادة التعليم الابتدائي العربي سنة 1954 (جريدة البصائر، 1954، ص.4).

المركز	عدد المشاركون	الناجحون
باتنة تبسة، عين البيضاء	55 28	41 18

بهذه النتائج احتلت منطقة باتنة المركز الأول في عدد المترشحين، والمرتبة الثانية من حيث نسبة النجاح بعد منطقة تلمسان، ثم في سنة 1955 حققت المنطقة النتائج التالية(جريدة البصائر، 1955، ص.3):

المركز	الناجحون	م. جيد	م.حسن	د . ملاحظة
تبسة باتنة	34 37	06 03	09 09	11 25

الحركة الإصلاحية بحملها فكرة التجديد وتصفية الدين من البدع وإحياء القيم ونشر التعليم، وضعت قواعدا وأسسا لنشرها وكونت رجالا ضمنوا مواصلة المسيرة التي تبعث النهوض الديني والإصلاحي، وتنمي الروح الوطنية للشعب، وذلك بالمطالبة بحقوقه الدينية والاجتماعية والسياسية، ظهر نشاط الحركة الإصلاحية بحوز آريس في سنة 1936 وازدهر سنة 1937، وفي شهر أوت 1937 تأسست الشعبة الأوراسية الإصلاحية، باسم جمعية العلماء بحيدوس بدوار عبدي من طرف بعض خريجي الجامع الأخضر، وهم من المنطقة وأغلبهم زاول التعليم لدى الشيخ عبد الحميد بن باديس، وأعضاء الشعبة:

- عمر دردور: المعتمد من طرف جمعية العلماء للقيام بالحركة الإصلاحية
- الأمير صالحي: من آريس.
- محمد يكن: المعروف بالغسيري من غوفي.
- أحمد تيملقين: المعروف بالسرحاني من كميل.
- محمد الصالح زموري: من حيدوس.
- عبد الواحد واحدي: من ثنية العابد
- أحمد بهلولي: من بوزينة

بعد تكوين الشعبة الأوراسية تقرر أن تكون في كل دوار شعبة محلية وتركيبها كالتالي: رئيس الشعبة، نائبه، كاتب وأمين المال، ستة أعضاء مستشارين وأعضاء عاملون وتكونت تسعة شعب مهمتها تكوين الجمعيات الدينية في الدواوير، تكونت جمعية دينية في كل دوار، من أشخاص يؤمنون بمبادئ جمعية العلماء مهمتها كالتالي:

– بناء المساجد الحرة وإصلاحها وتجهيزها وتعيين الأئمة الأحرار.

- فتح الكتاتيب القرآنية، تشييد المدارس الحرة للتعليم الابتدائي.

- تأسيس النوادي.
- تعيين المكلفين بالدروس العلمية، والتكفل بتسديد أجور المعلمين.

– الجمعيات التي تأسست بقوانينها وهيآتها:

- الجمعية الدينية الإسلامية: بوادي عبدي مقرها حيدوس.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار بوزوينة مقرها أم الرخاء.
- الجمعية الإسلامية: بدوار غسيرة مقرها غسيرة.
- الجمعية الدينية الإسلامية بدوار زلاطو مقرها اينوغيسن.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار وادي الأبيض مقرها آريس.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار منعة مقرها منعة.
- الجمعية الدينية الإسلامية: بدوار شير مقرها مدرونة.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار مشونش.
- الجمعية الدينية الإصلاحية: بدوار وادي الطاقة مقرها بوحمار.
- الجمعية الدينية الثانية:بدوار زلاطو مقرها تكوت.
- المدارس الحرة: تأسست مدارس عدة منها:

– مدرسة حيدوس – مدرسة أم الرخاء – مدرسة منعة – مدرسة بوزينة – مدرسة النوادر – مدرسة آريس – مدرسة غوفي – مدرسة تيفلفال – مدرسة مشونش – مدرسة تكوت – مدرسة اينوغيسن– كميل – مدرسة شير – مدرسة اشمول.

تأسيس النوادي الثقافية:

بعد تأسيس المدارس لتعليم النشء الجديد وتنظيم الحلقات الدراسية في المساجد شرع شيوخ الشعبة الإصلاحية في تأسيس النوادي الثقافية، والتي كانت ملتقى فئات من الشباب للتعارف، وتبادل المعلومات ورفع مستواهم الفكري والثقافي والأخلاقي، ووضع خطة ناجعة بغية التصدي للمستعمر، ويتألف مقر النادي من مكتب وقاعة للاجتماعات والمحاضرات وتقديم روايات ومكتبة، ومن هذه النوادي نذكر:

في تبسة: – جمعية الأوتار: تأسست سنة 1937 وهي جمعية موسيقية، متعاطفة مع العلماء– نادي الشبان المسلمين:

تأسس سنة 1930 أشرف عليه الشيخ العربي التبسي(هلال، 1995، ص. 273، 274).

في باتنة: نادي الإصلاح تأسس سنة 1933، وقد حاضر فيه الشيخ عبد الحميد بن باديس.

نوادي ناحية آريس: نادي حيدوس – نادي أم الرخاء – نادي النوادر – نادي أولاد عزوز– نادي آريس– نادي منعة – نادي تاقوست – نادي تفلفال.

كان للحركة الإصلاحية فضل كبير، وأثر بارز على مستوى الشعب بالأوراس فقد كانت واضحة من خلال الالتفاف الكبير حول الحركة وتأييدها ومساندتها الكاملة، ودفع أبنائه إلى تلقي التعليم من غير تحفظ وتهذيب السلوك، والقضاء على كثير من مظاهر التنازع والخرافات والخصومات في الأوساط الشعبية، وانصياعه لتوجيهات رجال الإصلاح وإزالة مظاهر البدع والفساد، وقد أمدها بدعم مادي في فتح الكتاتيب القرآنية وبناء المساجد وتشييد المدارس، وإيواء طلبة العلم وتجسيد التوجيه الديني في الممارسة اليومية.

كان من أعلام الحركة الإصلاحية في منطقة الأوراس الشيخ عمر دردور، المولود بقرية حيدوسة بوادي عبدي في 13 أكتوبر 1913، درس في الكتاتيب وعمره ست سنوات وحفظ القرآن بمسقط رأسه على يد معلمه الأول الشيخ محمد دردور، ثم توجه إلى زاوية الشيخ علي بن عمر بطولقة حيث تعلم على يد مشايخها مختلف العلوم لاسيما الدينية منها، في سنة 1932 توجه إلى قسنطينة حيث درس ووسع من علمه على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس بجامع الأخضر، وواظب على الدراسة بها إلى حتى سنة 1937، حيث كلفه الشيخ عبد الحميد بعدها في بتقديم الدروس على الطلبة في مسجدي سيدي قموش وسيدي بومعزة.

في سنة 1936 أسس رفقة جماعة من الطلبة الأوراسيين والعلماء الشعبة الأوراسية لجمعية العلماء المسلمين، وقد قام هو وزملاءه بنشاط هام في مجال التربية والتعليم والتكوين السياسي، مما دفع الإدارة الاستعمارية المحلية لمراقبة نشاطهم التعليمي والتثقيفي، وهدفوا إلى توقيف نشاط الحركة الإصلاحية والانتقام من مؤسسيها وغلق المدارس لأن فتح مدرسة لتعليم اللغة العربية كان ولا يزال في نظر الفرنسيين أخطر من فتح مصنع لإنتاج الأسلحة والذخائر(الورثيلاني، 1992، ص. 90) ، ولذلك كونت ملفا من الشهادات مزورة نسبت إلى الشيخ عمر دردور، الذي ألقت عليه القبض بتاريخ 19 أكتوبر 1939، وسيق إلى المحاكمة والسجن يقول فضيل الورثيلاني:« شهدت المحاكم مناظر مخجلة يساق فيها معلم العربية في مركب اللصوص والقتلة والمجرمين لمحاكمتهم على صعيد واحد » (الورثيلاني، 1992، ص. 90) ، وكانت التهم الموجهة إليه أثناء التحقيق التالية:

– القيام بحملة دعائية ضد فرنسا أثناء الاجتماعات الرسمية و المهرجانات.

– تحريض الشعب على العصيان والدعوة إلى عدم تنفيذ الأوامر.

– عدم الخضوع للسلطة المحلية وشتم أعوان الحكومة الفرنسية في اجتماعات عامة.

وفي خضم تحقيق الجاري في شخصه وقعت مظاهرات شعبية بمدينة باتنة، خصوصا في الشوارع المحيطة بالسجن وقصر العدالة، فصدر حكم عليه بأربعة أشهر سجن وغرامة مالية، ورغم معاناته في السجن إلى أنه واصل نشاطه في إطار الشعبة الأوراسية وإلقاء الدروس على الطلبة بقسنطينة حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية(الواعي، ص.260، 261) ، بفضل عمليات التثقيف والتوعية التي انبثقت من مراكز الحركة الإصلاحية فإن الوعي أصبح جليا من خلال تنمية الشعور الديني، وإلهام الحس الوطني وتأثيره على المواطنين، وذلك

من حيث ممارساتهم اليومية في الواقع المعيش، ومنه شعرت الإدارة المحلية للاستعمار الفرنسي وأعوانه بهذه التحولات ومظاهر الاشمئزاز والكراهية التي كان يبديها الناس لهم، الشيء الذي جعلهم يحيكون مؤامرات واسعة لمحاصرة نشاط حركة الإصلاح، بكل الوسائل وتدبير المكائد لها بجميع الأساليب لرجالها للانقضاض عليهم.

منذ نشأة الحركة الإصلاحية في آريس ونواحيها، كان الحاكم الفرنسي يقوم بعدة مؤامرات واستفزازات ضدها ومتابعة نشاطها، وبعد فشله في أساليب مع أعوانه التجأ إلى أسلوب العنف والتصفية الجسدية منها:

– اضطهاد الشيخ المكي بن تازرولت بالدشرة الحمراء عدة مرات، إذ يطلب منه إرغام ابنيه على الاستقالة من جمعية العلماء والجمعية الإصلاحية المحلية، ولكنهما لم يستقلا إذ ذاك.

– الاضطهاد المسلط يوميا على الشيخ المسعود بلعقون وبعض المصلحين بآريس.

– اضطهاد الشيخ عبد الواحد وأعضاء الجمعية بمشونش وحتى تلاميذ المدرسة وأوليائهم.

– تحريض القايد أوراغ عمر على منع الجمعية من فتح النادي بآريس، وهو قايد وادي الأبيض.

إغلاق الكتاتيب القرآنية والمدارس الحرة.

– منع العلماء من إلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المساجد.

– تسليط عقوبات مالية على المعلمين.

– تقديم المعلمين إلى المحاكم كمخالفين للقانون.

أمام هذه الإجراءات الردعية ضاعفت الجمعيات والنوادي الثقافية في الأوراس من عملها الجدي، بكل حزم وثبات في المدارس والنوادي والتجنيد في الحركة الإصلاحية. وترسخ العمل الإصلاحي والثقافي في نفوس العلماء، الذين عكفوا برسالة النهوض بالجزائر التي بدأت تشهد صحوة لم تعرفها منذ زمن، فأيقظت الجزائريين من السبات ودفعت الأمة إلى حفظ تراثها من المسخ والتحريف (رمضان، 1984، ص. 359) ، كل هذا بتنظيمات ووسائل جندتها لنشر فكرتها من مدارس، وصحافة، ونوادي ثقافية ومساجد (بوصفصاف، ص. 125) ، وكان أهم ميدان ركزت جمعية العلماء عليه جهودها هو ميدان التربية والتعليم، كونه وسيلة تثقيف وتوعية دينية ووطنية في جميع الفئات صغارا وكبارا إناثا وذكورا(رمضان، 1984، ص. 364، 367).

لم يقتصر عمل علماء الإصلاح الأوراسيين على الميدان الديني والثقافي فقط على غرار العلماء الآخرين في باقي الجزائر، بل توصلوا بسرعة إلى تغيير نشاطهم لينصب على التوجيه السياسي والديني، وذلك لأسباب مرتبطة بالعمل الروحي والديني في الإسلام ووفقا لمسعى واحد، قام العلماء الإصلاحيون بعمل ميداني قصد التأثير على المواطنين بتوعيتهم سياسيا، وقد انصبت خطبهم ودروسهم على الحياة الاجتماعية والإدارية وعلى الظروف القاسية التي يعيش فيها سكان الأوراس، والظلم القاسي الذي يرتكبه ممثلو الإدارة المحلية والحقوق التي يجب المطالبة بها من السلطة الاستعمارية، وهذا نص الذي عثر عليه دليلا على إسهامهم السياسي، جاء فيه:» يا شعب الأوراس نحن نكلمك باسم الأخوة الدينية والوطنية، ونرجو منك الانتباه إلى ما يجري بالأوراس.

هناك أناس يبحثون عن غرس الحقد بينكم والشقاق والتفرقة والعدوان بينما يجمعكم دين واحد ولغة واحدة وآمال وخيبات متماثلة.

لا تكونوا مغفلين أمام كلام بعض الأشخاص ذوي النيات السيئة – أعوان الإدارة الاستعمارية – الذين يرغبون في بقائكم كالبقر الحلوب وكفريسة سهلة أو ككرة بين أيدي المستغلين الذين يبحثون عن استغلالكم وتدميركم وفقركم.

إن جبالكم غنية وسطح أراضيكم جذب وأنتم فقراء وأن أبناءكم يعانون من الحرمان والذئاب تتقاسم ثمرة أعمالكم، هل تقبلون دون احتجاج كل هذه القيود ؟ لا. لقد تبينتم نتائج أعمالكم، وقدرتم قيمة الكنوز التي فقدتموها، وقد بلغتم اليقظة فاستيقظوا.

نحن نثبت لكم الاستقامة عندما نراكم تساندون العلماء والمنتخبين الأحرار والداعين لمبادئ العدالة والإخوة المقدسة لدى الإنسان.

لا تنسوا بأنكم أمة عربية مسلمة.

يا سكان الأوراس الأحرار الكرماء قوموا للعمل واقضوا على كل ما يفرق وحدتكم.

يا سكان الأوراس المتمسكين بدينكم الإسلامي انهضوا واستيقظوا لاسترجاع مجدكم» (جمعية التاريخ و التراث، ص. 274).

خلال سنة 1937 وفي الوقت الذي كانت تنتشر فيه عبر الجزائر الحركات التي نعرفها، حدثت إثارة شديدة بالأوراس التي أدت إلى التخوف حتى بالنسبة للمحافظة على النظام العام و التي كان سببها عمل العلماء المصلحين هناك مذكرة بـ:» Archives Nationales d'Outre – Mer «، في تقرير وضع تحت عنوان تقدم الحركة الإصلاحية في منطقة الأوراس، جاء فيها: – « لقد زاول أربعة أوراسيين، أبناء المرابطين، دراستهم بجامع الأخضر بقسنطينة، تحت إشراف الشيخ عبد الحميد بن باديس، كان هؤلاء التلاميذ الأربعة أعضاء في اللجنة المديرة للشعبة الأوراسية للعلماء المؤسسة في أوت سنة 1936م، بينما الأعضاء الآخرون للجنة المديرة يمثلون عائلات مرابطية هامة مناصرة للزوايا الرحمانية لتبرمسين وتلميذ آخر من قرية غوفى «.

وهناك تقرير آخر خاص بمنطقة آريس المؤرخ في 9 أوت 1937 تحت رقم/G 69 تقرير هام لحاكم حوز آريس المؤرخ في 13 سبتمبر 1937، يحتوي على الظروف التي تكونت فيها الشعبة الأوراسية ومعلومات عن أعضائها وسلوكهم.

خاتمة:

واستمرت المجابهات بين الطرفين تزداد حتى قامت ثورة أول نوفمبر 1954م، التي مثلت أوج الصراع الثقافي و الحضاري بين الجزائر وفرنسا، والهادفة إلى استعادة الشخصية المسلوبة في قيمها وذاتيتها، فكان العمل الثقافي يساير الكفاح المسلح، وسار جنبا إلى جنب، حيث انتشر التعليم وعملية محو الأمية، ورغم

الأوضاع القاسية فإن جبهة التحرير الوطني لم ينسيها الاهتمام العسكري العناية بالتعليم داخليا وخارجيا، فقد تكفلت بتعليم أبناء القرى والمداشر بإنشاء مدارس التعليم العربي، جاعلة إياها معاقل للكفاح تتصدى لسياسة فرنسا ومحاولتها احتواء الثورة الجزائرية، من خلال ما سبق ذكره نستخلص استمرار المقاومة الجزائرية التي تعددت أنماطها والهدف واحد هو صد المشروع الاستعماري، فكان الأوراسيون أكثر عنادا، وأصلبهم عودا وأشدهم تمسكا بشخصيتهم التاريخية العريقة.

قائمة المراجع:

بوصفصاف عبد الكريم: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1981.

خمري الجمعي: حركة الشبان الجزائريين والتونسيين (1900-1930) دراسة تاريخية وسياسية مقارنة ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف الدكتور عبد الكريم بو الصفصاف، جامعة قسنطينة، 2003-2002.

خير الدين محمد: مذكرات الشيخ محمد خير الدين، المؤسسة الوطنية للكتاب، دون تاريخ، ج 2، ص 13.

تورين ايفون: الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر إبان القرن 19، الملتقى السادس للفكر الإسلامي، م 1، الجزائر 1972.

رمضان محمد الصالح: «جمعية العلماء و دورها العقائدي و الاجتماعي و الثقافي»، مجلة الثقافة، ع 85 الممتاز، الجزائر، 1984.

الزبيري محمد العربي: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر:1973، ص 153.

سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، در الغرب الإسلامي بيروت: 1998. ص.242.

شهبي عبد العزيز: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2007.

العلوي محمد الطيب: التربية بين الأصالة و التغريب، منشورات دحلب، الجزائر.

هلال عمار: أبحاث في تاريخ الجزائر المعاصر 1962-1830، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

الواعي محمود: المجابهة الثقافية، في تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من 1837- 1954.

الواعي محمود: حياة الشيخ عمر دردور ونضاله قبل الثورة المسلحة، تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من 1837- 1954.

الورثيلاني فضيل: الجزائر الثائرة، دار الهدى، الجزائر، 1992.

جريدة البصائر، ع 283، 284، 285، بتاريخ 03، 10، 17 سبتمبر 1954.

ع. 329، 29 جويلية 1955.
كتاب تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من 1837– 1954.
Fanny Colonna : Les Instituteurs Algériens (1883–1939).O.P.U.Alger :1975.
Turin Yvonne : Affrontement culturel l'Algérie colonial (école 'médecines' religions)'1830 –1900 'E.N.A.L' deuxième edition' Alger .